مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 25 عدد: 60 السنة: 2021

أثر أسباب النزول في تدبر القرآن الكريم عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

من خلال تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)

The Descent Reasons Impact in the Noble Quran reflection according to Abd Al-RahmanHasanHabanaka Al-Miydani through his Interpretation (Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir)

مريم بوعافية[1]
طالبة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
bfiameriem.25@gmail.com
د.حدة سابق
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
tesnim4025@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/07/11 القبول 2021/07/17 النشر على الخط 2021/10/30
Received 11/07/2021 Accepted 17/07/2021 Published online 30/10/2021

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أثر أسباب النزول في تدبر القرآن الكريم في أحد أهم التفاسير المعاصرة وهو تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، وذلك من خلال بيان جهود المفسر في العناية بأسباب النزول تنظيرا في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) وتطبيقا في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)، ثم بيان مسلكه في التعامل معها أثناء تدبره لسور القرآن الكريم وفق ترتيبها النزولي؛ وختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم نتائج البحث وقد كان من أبرزها أن المفسر لخّص أهم ما ينبغي بيانه في أسباب النزول تنظيرا، وحرص على امتثال ما نص عليه قدر المستطاع وإن كان فاته الشيء اليسير.

الكلمات المفتاحية: أسباب النزول؛ (معارج التفكر ودقائق التدبر)؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني.

Abstract:

The purpose of this study was to spotlight on the descent reasons impact in the Noble Quran meditation of the most important contemporary interpretations, which is the interpretation of (Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir) of Abd Al-Rahman Hasan Habanaka Al-Miydani) and this through showing the interpreter's efforts in care of the decent reasons by scoping in his book (The Ideal Forethought Rules of the Divine Book) and applying in his interpretation (Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir), then explaining his dealing with them during his forethought of the Noble Quran chapters according to their descent order; I ended the research with a conclusion containing the research most important finding and the most eminent perhaps were that the interpreter has summed up about the scoping in the decent reasons and his eager on compliance with what possibly was stated; although his missing bite a little.

The Key-Words: The Descent Reasons، Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir، Abd Al-RahmanHasanHabanaka Al-Miydani.

[1] – المؤلف المرسل: مريم بوعافية البريد الإلكتروني: **bfiameriem.25@gmail.com**

مقدمة:

تعاقبت جهود العلماء في العناية بالقرآن الكريم، إذ سخّروا حياتهم خدمة له، وصرفوا هممهم لتدبره، نهلا من معينه الذي لا ينضب، وتزودا من معارفه وهداياته، فخلّفوا بعدهم تراثا تفسيريا ضخما ضم كثيرا من التفاسير القديمة والمعاصرة؛ والتي منها تفسير تدبري للقرآن الكريم وفق الترتيب النزولي للسور سمّاه عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بـ(معارج التفكر ودقائق التدبر)، وجاء حافلا بكثير من العلوم وعلى رأسها علوم القرآن الكريم، فقد اجتهد صاحبه في توظيفها على صعيد واسع أثناء تدبره للسور، إدراكا منه لأهميتها وفعالية موقعها في فهم مراد الله ﷻ، ومن أبرزها ما يعرف بعلم أسباب النزول الذي حظي بمنزلة خاصة عنده وجاءت تطبيقاته له مبثوثة في ثنايا تدبره، ولا غرو في ذلك فقد تواتر كلام العلماء في بيان فضله ودوره البارز في إيضاح المعنى والوقوف على مقاصد الآي؛ ومن ثم انبثقت فكرة البحث في الموضوع بغرض الكشف عن خباياه، وقد جاء بعنوان: **"أثر أسباب النزول في تدبر القرآن الكريم عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني من خلال تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)"**، أهدف من خلاله للإجابة على إشكالية علمية مفادها: ما أثر أسباب النزول في تدبر القرآن الكريم عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني؟، والتي ينبثق عنها جملة من التساؤلات، أهمها: هل أدرج المفسر أسباب النزول ضمن قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ التي أفردها بمؤلف مستقل؟ ما موقفه من قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"؟ كيف تعامل مع أسباب النزول أثناء تدبره؟

وللإجابة على هذه التساؤلات العلمية قسّمت البحث بعد المقدمة إلى أربعة مطالب تليهما خاتمة، وفق خطة تفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: سبب النزول تعريفه، وصيغه، وطرق معرفته.

المطلب الثاني: مكانة أسباب النزول في تدبر كتاب الله ﷻ عند المفسر.

المطلب الثالث: تطبيق المفسر لقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المطلب الرابع: مسلك المفسر في الاستعانة بأسباب النزول أثناء تدبره.

المطلب الأول: علم أسباب النزول تعريفه، وصيغه، وطرق معرفته.

يحتل علم أسباب النزول أهمية بالغة بين العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ، فهو من أحسن الوسائل المعينة على الوصول إلى مقاصده، ومن أفضل الأدوات الموصلة إلى المنهج الأمثل لتفسيره وتدبره.

هذا، وقد وقع عدد من الباحثين فضلا عن المفسرين في لُبس، إذ لم يميّزوا بين أسباب النزول وبعض القصص والروايات ثم بنوا عليها تفسيرهم للآيات، ما يستلزم تحديد مفهوم سبب النزول ليخرج من حدّه ما ليس فيه، وبيان الصيغ المعتمدة فيه، والوقوف على طرق معرفته.

أولا: تعريف سبب النزول.

تنوعت عبارات أهل العلم في تعريف سبب النزول، ولعل أرضاها وأضبطَها ما عرفه به "عبد العظيم الزرقاني"، بقوله: "سبب النزول

هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه"[1]، وقوله "أيام وقوعه" قيد غاية في الأهمية؛ يَخرج به الآيات التي نزلت ابتداء دون سبب، وتلك التي تتحدث عن الأمور الماضية كقصص الأنبياء، أو المستقبِلة كأهوال يوم القيامة.

وهذا القيد نبّه إليه "السيوطي" معقبا على قول "الواحدي"، بقوله: "والذي يتحرر في سبب النزول، أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية"[2].

وهنا لابد من التنبيه إلى أنّ سبب النزول يكون قاصرا على أمرين[3]:

.**الأول**: أن تقع حادثة في زمن النبي ﷺ، فينزل القرآن بشأنها.

مثاله: ما ثبت عن "ابن عباس" رضي الله عنه أنه قال: "لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: 214]، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[المسد: 1- 2]"[4].

.**الثاني**: أن يُسأل الرسول ﷺ عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه أو يجيب عن التساؤل.

مثاله: ما ثبت عن "أنس" رضي الله عنه "أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبيّ ﷺ النبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...﴾ [البقرة: 222] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح »، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه"[5].

وخلاصة ذلك أن سبب النزول يكون مرتبط بأمرين اثنين إما حادثة وقعت زمن الوحي، أو سؤال وجّه إلى النبي ﷺ فينزل قرآن في ذلك، وما سواهما من قصص وأخبار لم تقترن بأسباب فلا تدخل في هذا المبحث القرآني الذي يعتبر من أهم ما ينبغي العناية به في

---

[1] _ مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص160. ويعد الإمام السيوطي من أوائل من عرّف "أسباب النزول" كمصطلح قائلا: "ما نزلت الآية أيام وقوعه"، وقد فصّل الزرقاني في تعريفه وأضاف إليه ضابطا مهما وهو أن تكون هذه الآية أو الآيات مبيّنة لما يتصل بما حدث زمن نزول الوحي، وهو القيد الذي أغفله السيوطي، ليخرج به الأحداث التي تزامنت ونزول الآيات لكنّها لا تدخل ضمن أسباب النزول، فيكون بذلك أتم من تعريف السيوطي لاشتماله على قيود تحدد معالم هذا الاصطلاح بدقة. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج1، ص106/ إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل عباس، ج1، ص253 وما بعدها/ أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، عماد الدين الرشيد، ص96/ علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص46.

[2] _ الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص116.

[3] _ ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، ص13.

[4] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك﴾[الشعراء: 215]، رقم: 4770، ج6، ص111.

[5] _ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحيض، باب: جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، رقم: 16، ج1، ص246.

تفسير كتاب الله ﷻ.

ثانيا: صيغ أسباب النزول.

اشتهر السّلف –رحمهم الله– بحرصهم البالغ ودقّتهم العالية في نقل ما سمعوه من روايات، ومن ذلك روايات أسباب النزول التي تنوّعت ألفاظهم في التعبير عنها، وتعدّدت صيغهم في بيان ما اقترن منها بنزول الآية أو السورة؛ وهذا يثير تساؤلا حول الصيغ التي تمكّن المفسر من معرفة أسباب النزول؟

والجواب: ما ذهب إليه جمع من العلماء في تقسيمهم صيغ أسباب النزول إلى قسمين[1]:

القسم الأول: ما كان نصا صريحا في السببية وله صورتان:

.الأولى: أن يقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا، فيُصرح بلفظ السبب[2].

.الثانية: أن يأتي الراوي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، فيقول: حدث كذا وكذا فنزلت الآية، أو يقول: سُئل النبي ﷺ عن كذا فنزلت الآية، وغيرها من الصيغ[3].

القسم الثاني: ما كان محتملا للسببية ولأمر آخر، مثل بيان ما تضمنته الآية من الأحكام، وصورة ذلك أن يقول الراوي مثلا: نزلت هذه الآية في كذا، أو يقول: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، وفي هذه الحالة تحتمل العبارة كونها سبب نزول، كما يمكن أن تكون تفسيرا وتوضيحا للآية الكريمة[4].

قال "ابن تيمية": "وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عُني بهذه الآية كذا"[5].

وخلاصة ذلك: أن إطلاق السلف لعبارات النزول كان واسعا، يدخل فيه سبب النزول بالمعنى الخاص المتعارف عليه وهو ما نزلت الآية بشأنه أيام وقوعه، كما يشمل ما كان من باب التفسير وبيان معاني الآيات، أو كان فيه ذكر قصة الآية، أو كان من باب التنزيل على الواقع[6].

---

(1) _ ينظر: ينظر: الإتقان، السيوطي، ج1، ص115-116/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص114 وما بعدها/ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص85.

(2) _ ذهب عدد من الباحثين المعاصرين بعد استقرائهم لعبارات النزول إلى أن هذه الصيغة لا وجود لها، وإنما هي صورة افتراضية، يقول خالد المزيني: "لم أجد سببا واحدا وردت فيه هذه الصيغة، كما أن "الزرقاني" لم يذكر لها مثالا"، ويقول "عماد الدين الرشيد": "وهذه الصيغة أصرح ما يكون في السببية؛ إلا أني لم أجد لها مثالا في كتب أسباب النزول، ولم يمثل لها من تكلم في علوم القرآن من مشاهير العلماء، ويبدو أنها صيغة نظرية، والله أعلم". ينظر: المحرر في أسباب النزول، خالد المزيني، ج1، ص115/ أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، ص67/ معرفة أسباب النزول وأثرها في اختلاف المفسرين والفقهاء، عبد الله طاهر، ص20.

(3) _ وقد ترد هذه الصيغة ولكن لا تدل على سبب النزول ولكنه قليل جدا. ينظر: المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني، ج1، ص115.

(4) _ إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص292.

(5) _ مقدمة في أصول التفسير، ص16.

(6) _ "وذلك من خلال تنزيل الصحابة والتابعين ﷺ بعض الآيات القرآنية على حوادث وجماعات لم يكن لها أثرٌ أو وجود أصلا زمن التنزيل، بل على فرق وجماعات لم تنزل بسببهم آيات البتة؟ ومثاله: ما جاء عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال: 27] قال

وهذه الصيغ تلزّم على الباحث بأن يتحرى الدقة في نقل عبارات السلف ومعرفة مدلولاتها، اقتداء بشدّة حرصهم ودقّتهم العالية في نقل الروايات.

ثالثا: طرق معرفة أسباب النزول.

يخضع علم أسباب النزول لقواعد علم الحديث، فهو من الناحية الشكلية عبارة عن نصوص حديثية تحكي حوادث وقعت في زمنه ﷺ واستدعت نزول آيات من القرآن الكريم، ومن هنا فلا يُقبل منها إلا ما صح ويشترط فيه شروط قبول الأخبار[1]، فنجد "أبا حيان الأندلسي" –وهو يعدّد أهم الوجوه التي يقع النظر في كتاب الله تعالى من قِبلها–، جعل من أهمها: "علم اللغة، وكذا معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها، وكذا كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع. تعيين مبهم، وتبيين مجمل وسبب نزول ونسخ...–، [وعند إشارته إلى سبب النزول أكد بقوله:] وسبب نزول ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك من علم الحديث"[2].

فبين أن لا مجال فيها للرأي والاجتهاد، يقول الكافيجي: "فإن قلت: فهل يجوز التكلم في سبب النزول بدون السماع والمشاهدة بالعرض على الأصول عند من يرى تأويل المتشابه؟

قلت: لا يجوز، فإن سبب النزول من الأمور التي لا دليل عليها إلا من جهة الشرع، فإذا لم يجئ دليل من قبل الشرع على ذلك لا يجوز التكلم فيه، فيكون التكلم فيه كالتكلم في المغيبات التي ليس لها دليل أصلا فيتوقف فيه، ولهذا لم يتكلم المفسرون في سبب النزول بدون دليل أصلا، وإن تكلموا في تأويل المتشابه بالعرض على الأصول على وجوه شتى، بل أجمعوا على أن من التكلم فيه لا يجوز بدون السماع والمشاهدة"[3].

ومن ثمّ فلا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع عن الصحابة والتابعين ﷺ، كما نص الواحدي بقوله: "ولا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا في علمها وجدوا في الطّلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار"[4].

ويمكن أن نستخلص من هذا القول فوائد ثلاث:

الأولى: تشدد السلف في قبول روايات أسباب النزول.

المغيرة بن شعبة ﷺ: "نزلت هذه الآية في قتل عثمان ﷺ"، ومعلوم أن قتل عثمان كان بعد وفاته ﷺ وانقطاع الوحي بفترة طويلة ولكن هذا من باب اجتهاد الصحابة". تنزيل الآيات على الواقع، عبد العزيز الضامر، ص42/ الأثر أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن، ج13، ص482.

[1] _ وبما أنها روايات حديثية فهي عبارة عن سند ومتن ومن ثمّ فإن البحث فيها يعتمد على النظر في سندها ومتنها، فأما من جهة السند؛ فيكون بالنظر في حال رجاله، وتقسّم إلى روايات صحيحة، وروايات ضعيفة، وأخرى باطلة موضوعة. وأما من جهة المتن؛ فيكون بالنظر إلى في صيغتها وزمانها ومكانها وشخصياتها وموافقتها للفظ والنص، وانسجامها مع سياقه. التفسير بأسباب النزول، مفتاح علي محسن، ص29. –بتصرف–. ينظر: دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد الرومي، ص151.

[2] _ تفسير البحر المحيط، ج1، ص107.

[3] _ التيسير في قواعد علم التفسير، ص206.

[4] _ أسباب النزول، ص8.

الثانية: طريق معرفة أسباب النزول هي الرواية والسماع عن الصحابة والتابعين ﷺ.

الثالث: التذكير بالوعيد الذي يلحق من قال في أسباب النزول بغير علم.

وصفوة القول في ذلك: أن أسباب النزول من جملة علوم القرآن التي تناقلها الخلف عن السلف، والحديث عن طرق معرفة أسباب النزول يدل على مكانتها ومنزلتها، فمنزلتها من منزلة الحديث الشريف.

المطلب الثاني: مكانة أسباب النزول في تدبر كتاب الله ﷻ عند المفسر.

اعتنى المفسرون سلفا وخلفا بأسباب النزول عناية بالغة في تفسيرهم لكتاب الله؛ وقد سار على نهجهم من المعاصرين "عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني"[1] إذ خصّ القاعدة الحادية عشرة من كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)[2] بالحديث عن "النظر فيما ورد من أسباب النزول"[3]، فجعلها بذلك إحدى قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، ونبّه فيها إلى مسائل دقيقة ترتبط بأهمية سبب النزول، وضرورة التثبت منه، وشروط اعتماده، وهذا تفصيلها:

أولا: أهمية سبب النزول.

أكّد –رحمه الله– على ضرورة الوقوف على سبب النزول لمن أراد تفسير كتاب الله تعالى بقوله: "على متدبر كتاب الله وآياته المنزلات أن ينظر فيما ورد من أسباب النزول، فكثيرا ما يلقي سبب النزول الذي صحّ سنده الضوء على المعنى المراد من النصّ القرآني"[4].

يظهر من هذا النقل أن المفسر أراد التنبيه إلى أمرين:

الأول: ضرورة النظر فيما ورد من أسباب النزول عند تفسير القرآن الكريم؛ إذ لابد للمفسّر أن يجتهد في البحث عن سبب نزول

---

[1] _ هو عبد الرحمن بن حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنيم حبنكة الميداني، ولد في عام 1345هـ الموافق لعام 1927م في حي الميدان جنوب مدينة دمشق السورية، لأب من أعلام علماء دمشق وهو الشيخ حسن حبنكة الميداني، نشأ في بيئة طيّبة محبّة للعلم، تخرّج من معهد والده ضمن الدفعة الثالثة عام 1367هـ/ 1947م وبعدها التحق بكلية الشريعة بالأزهر وحاز على الشهادة العالية ثم على شهادة العالمية مع إجازة في التدريس، أكمل مسيرته العلمية والتعليمية في المملكة العربية السعودية إلى أن أحيل إلى التقاعد وقد قارب عمره سبعين عاما، وأثناء هذه الفترة اتجه بكل ما يملك لتدبر كتاب الله ﷻ استكمالا لما شرع فيه من قبل، وفق المنهج الذي رسمه في كتابه: (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، وسماه (معارج التفكر ودقائق التدبر)، رجع إلى مدينة دمشق في شهر شوال من سنة 1424هـ بعد غياب خمسة وعشرين عاما عنها، ولكن إقامته فيها لم تدم طويلا ففي صبيحة يوم الأربعاء 25 جمادى الآخرة 1425هـ، الموافق لـ: 11 أوت 2004م، انتقل إلى رحمة ربه عن عمر يناهز الثمانين عاما تقريبا. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر، عائدة الجراح، ص12/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص59/ الوالد الداعية المربي، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص35.

[2] _ يعد هذا الكتاب فاتحة جهود المفسر في تدبر كتاب الله تعالى، ضم بين دفتيه أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، اهتدى إليها بعد ممارسة طويلة لتدبر كتاب الله تعالى، يقول في سياق حديثه عن القواعد: "وقد هدت إليها ممارسة تدبر كتاب الله بعمق وأناة، قرابة ثلث قرن أو أكثر"، ويعد الكتاب بمثابة مقدمة لتفسير (معارج التفكر)، يقول تلميذه محمد مكي: "وإذا كانت عادة الكثير من المؤلفين أن يكتبوا مقدمة كتبهم بعد الانتهاء من تأليفها...فإن الشيخ كالمهندس الخبير، والبناء القدير، قد خطط لكتابه، ورسم منهجه فيه، وكتب مقدمته الوافية قبل البدء بتدبره العميق لكتاب الله ﷻ". ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، ص6/ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص10-11.

[3] _ وقد عنون لها بـ: القاعدة الحادية عشرة «حول النظر فيما ورد من أسباب النزول». قواعد التدبر، ص203.

[4] _ قواعد التدبر، ص203.

الآية أو السورة إذا كانت نزلت لسبب، لأن الجهل به وإغفاله يترتب عنه فهم ناقص ومبتور، بل قد يوصل إلى فهم خاطئ ومنحرف فيقع المفسّر في الافتراء على الله ﷻ.

وقد نبّه إلى هذا علماء السلف يقول "الواحدي": "إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليه، وأولى ما تصرف العناية إليه؛ لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها؛ دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها"[1].

و"للشاطبي" كلام دقيق في بيان العلاقة الدقيقة بين أسباب النزول وتفسير كتاب الله ﷻ، يقول: "معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن"[2].

الثاني: دور سبب النزول الذي صحّ سنده في الكشف عن المعنى المراد؛ فهو من الطرق القويمة لفهم معاني القرآن الكريم والوقوف على مراد الله ﷻ.

قال "ابن تيمية": "ومعرفة سبب النزول؛ يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب؛ يورث العلم بالمسبب"[3].

وقال "الشاطبي": "ومعرفة الأسباب؛ رافعة لكل مشكل"[4].

وهذه الأقوال وغيرها تبرز مكانة أسباب النزول بين جملة العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ، وأنها من أوجب ما يجب دراسته والوقوف عليه لكل من أراد بيان معاني الآيات والوصول إلى مراد الخالق منها.

ثانيا: ضرورة التثبت من سبب النزول.

التفت المفسّر إلى مسألة غاية في الأهمية، تتعلق بما يورده المفسرون على أنّه من أسباب النزول، يقول: "وكثير مما يذكره المفسرون على أنّه سبب لنزول آية من الآيات ليس له سند صحيح يثبته، كما أنّه قد يكون غير صالح لإلقاء الضوء على المعنى المراد، بل قد يحوّل فكر المتدبر لكلام الله عن الفهم الصحيح المتسق مع جملة ما جاء في كتاب الله. وقد يصادف المطالع في كتب التفسير حادثة مكيّة ذكر بعض المفسرين أنها سبب لآية مدنية أو العكس، مع وجود الفارق الزمني الطويل في الصورة الأولى، ومع تأخر حدوث ما ذكر أنّه سبب النزول في الصورة الثانية، وهي الصورة التي ذكر فيها أن الحادثة المدنيّة سبب لنزول نص مكيّ"[5].

والمفسّر هنا نبّه إلى ولع المفسرين في طلب أسباب النزول، وهو ما جعلهم يكثرون ولا يغربلون ويدققون؛ ونستخلص من قوله أن معظم ما يُروى على أنّه من أسباب النزول، لا يمكن الاعتماد عليه في تدبر آي القرآن الكريم وذلك للأسباب الآتية:

– ضعف الرواية، وعدم ثبوت سند صحيح لسبب النزول.

– عدم صلاحية ما ذُكر على أنه سبب نزول لإلقاء الضوء على المعنى المراد من كلام المولى سبحانه، وهذا ما قد يحيد بالمفسر عن الفهم الصحيح المتسق مع ما جاء في باقي آي الذكر الحكيم.

---

[1] _ أسباب النزول، ص8.

[2] _ الموافقات، ج4، ص146.

[3] _ مجموع فتاوى، ج13، ص339.

[4] _ الموافقات، ج4، ص146.

[5] _ قواعد التدبر، 205.

– إغفال المفسرين لزمن النزول مما قد يوقعهم في اللّبس وعدم التفريق بين المتقدم والمتأخر نزولا.

و قوله في هذا الباب سديد، إذ ليس كل ما ذُكر على أنه من أسباب النزول يستعان به في فهم كلام المجيد، بل لابد من انتقاء وغربلة كل ما رُوي في هذا الباب لما في ذلك من خطر على فهم القرآن الكريم، وقد سبق وأن بيّنت طرق معرفة أسباب النزول وتشدّد العلماء في قبول الروايات، وما قاله المفسّر نبّه إليه قبله غيره من المفسرين ومنهم ابن عاشور بقوله: "أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن...وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا. بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآي أسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن"[1].

ثالثا: شروط اعتماد سبب النزول.

لم يغفل المفسر عن التذكير بشروط اعتماد سبب النزول وقد أكّد عليها في ختام القاعدة قائلا: "لا يصلح اعتماد جميع ما ذكره المفسّرون على أنّه من أسباب النزول، واعتباره أساسا لتحديد معاني النصوص، إلا أن يثبت بسند صحيح، ولا يتنافى مع تاريخ نزول النصّ أو يكون منسجما مع دلالات النصّ الواضحة دون أن يكون فيه ما يخدش اعتباره سببا لنزول النص الموضوع للتدبّر"[2].

وهذه التي نصّ عليها تعد بمثابة ضوابط لاعتماد أسباب النزول، إذ لابد من:

. ثبوت سبب النزول بسند صحيح، وهذه نبّهت إليها أثناء الحديث عن طرق معرفة أسباب النزول، وظهر هنالك تشدد العلماء في قبول الروايات.

. توافق سبب النزول مع تاريخ نزول النص: وهذه نبّه عليها العلماء وذلك لأن "الزمان إنما يشترط في سبب النزول"[3]، كما جاء على لسان الزركشي.

وبهذا الضابط تخرج الروايات التي لم تتزامن مع وقوع الحدث والسؤال والتي هي ليست من أسباب النزول[4].

. انسجام سبب النزول مع دلالات النص: فإذا كانت الآية أو السورة لا تحتمل معنى رواية سبب النزول ولا يوجد تناسب في الموضوع بينهما، فلا يمكن الأخذ بها واعتبارها في الفهم[5].

. سلامة سبب النزول مما قد يخدش في اعتباره سببا لنزول النص: أي أن يسلم سبب النزول من المعارضة، بأن "لا تعارض رواية سبب النزول نص أقوى منها سواء أكان قرآنا أم سنة، أم رواية صحيحة. ولا تعارض أصلا من أصول العقيدة، ولا تنافي قاعدة من

---

[1] _ التحرير والتنوير، ج1، ص46.

[2] _ قواعد التدبر، 205.

[3] _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص26.

[4] _ ينظر: المحرر في أساب النزول، ص113.

[5] _ ينظر: المرجع نفسه، ص112-113/ دراسة تطبيقية في ضوء أطر لابد منها في تحقيق أسباب النزول، أحمد فريد وعبد الرحيم فارس، ص73.

قواعد الإسلام"[1].

ونخلص من ذلك كلّه أن "عبد الرحمن حبنكة الميداني" سار على نهج السلف في النص على ضرورة اعتماد سبب النزول في فهم آيات القرآن الكريم والتنبيه على ما قد يقع فيه المفسرون من أخطاء في هذا الباب، وقد أحسن صياغة هذه القاعدة وعرضها، إذ ضمنها خلاصة ما ينبغي العناية به في مبحث أسباب النزول، وضمنها جملة من الضوابط الهادية لتحديد سبب النزول من غيره، فمن اعتمدها ورعاها حري به أن يوفّق في الوصول إلى السبب، إلا أنه لم يعزّزها بأمثلة تزيدها قوّة ووضوحا إذ بالمثال يتضح المقال كما يقال.

وتقعيد مفسرنا لأسباب النزول من الناحية النظرية في قواعده يشوّق الباحث إلى الكشف عن تطبيقه لبعض القواعد المتعلقة بأسباب النزول، والتي نبّه إليها في هذه القاعدة بقوله: "ويلزم مع ذلك مراعاة قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»"[2].وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب اللاحق.

المطلب الثالث: إعمال المفسر لقاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

يستند علم أسباب النزول على جملة من القواعد ومن أهمها قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، فهي كما قال السعدي قاعدة "نافعة جدا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها"[3].

أدرك "عبد الرحمن حبنكة الميداني" أهمية هذه القاعدة ومنزلتها السنيّة فجعلها مما يلزم مراعاته في مبحث أسباب النزول بيانا لمعاني القرآن الكريم، وقد نظّر لها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل) ثم طبّقها في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)[4]، مفعّلا إياها أثناء تدبره لآيات الذكر الحكيم، وعليه فالحديث عن هذه القاعدة يتضمن مسألتين رئيسيتين:

المسألة الأولى: تنظير المفسّر لقاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

ضمّن –رحمه الله– القاعدة الحادية عشرة من قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، حديثا عن قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" باعتبارها أحد أجل مباحث أسباب النزول وأهم ضوابط النظر فيما ورد منها، ثم فصّل الحديث عنها وتضمن حديثه شقين:

---

[1] _ دراسة تطبيقية في ضوء أطر لابد منها في تحقيق أسباب النزول، أحمد فريد وعبد الرحيم فارس، ص74.

[2] _ قواعد التدبر، ص203.

[3] _ القواعد الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ج1، ص11.

[4] _ اشتهر التفسير باسمه المختصر أما اسمه الكامل فهو: (معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، واشتمل على خمسة عشر مجلدا، بمعدل سبعمائة وتسع وثلاثين صفحة في كل مجلد، تدبر فيها ست وثمانين سورة.

الأول: التعريف بالقاعدة.

بيّن المفسر المراد منها بقوله: "والمراد من هذه القاعدة: أن العبرة بعموم النص بمناسبة حادثة ما، أما الحادثة الخاصة التي كانت سبب نزول النص فلا يجوز أن تعتبر مخصِّصة لدلالة النصّ العامة، بل هي ونظائرها داخلة في عموم الحكم الذي جاء في النص إن كان عامّا دخولا أوليا"[1].

وبإقراره لهذه القاعدة يكون موافقا لما ذهب إليه أكثر العلماء المحققين في حديثهم عن ما ورد في القرآن الكريم لسبب خاص وجاءت الآيات بصيغة العموم؛ حيث يرتكز عليها الفقيه والمفسر في تعميمهم لما تضمنته نصوص القرآن الكريم من أحكام، ما لم تقم قرينة تقصر الحكم العام الوارد في الآية على سبب النزول الخاص[2].

يقول "ابن تيمية" موجّها ما أثير من خلاف حولها: "والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: عنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا أو نهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضا"[3].

وقال: "وقصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل، فإن عامة الآيات بأسباب اقتضت ذلك، وقد علم أن شيئا منها لم يقصر على سببه"[4].

الثاني: حدود تطبيق القاعدة.

بعد تعريف المفسر للقاعدة نجده وضّح حدود تطبيقها قائلا: "ويتجاوز بعض الناس الحدّ المراد في تطبيق هذه القاعدة، فيقتطعون من الآية جملة، ويجرِّدونها عن سياقها، ويفهمون منها معنى عاما، أو معنى خارجا عمّا وردت له في السياق كليا؛ مع أن الجملة لم تأت على أنها قاعدة كليّة، وما جاء في النص بعض تطبيقاتها، أو بعض أفرادها. وبهذا التجاوز يتوهمون أن سياق النص هو خصوص السبب، فيقطعون النصّ عن سياقه ويقولون: "العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب" ما لم يكن إيرادها في الآية بوصفها قاعدة عامة، وما جاء في الآية مما استدعاها مندرج في عمومها، كالقواعد والأحكام الكلية التي تأتي في أواخر الآيات، نحو: "والله بكل شيء عليم" و"وهو على كل شيء قدير"...وأمثال هذه القضايا والأحكام الكلية"[5].

والمفسّر هنا ينبّه إلى أهم الضوابط التي ينبغي مراعاتها في إعمال قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، والتي هي من

---

[1] _ قواعد التدبر، ص205.

[2] _ وهذه القاعدة من أشهر القواعد المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه التي تبرز الترابط والتكامل بين العلمين؛ فقد شاع احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة وعليه درج جمهور العلماء . ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، ج2، ص352/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص32/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص110/ قواعد التفسير، خالد السبت، ج2، ص593/ أسباب النزول أسانيدها وأثرها في تفسير القرآن الكريم، بن جمعة سهل، ص141.

[3] _ مجموع الفتاوى، ج13، ص339.

[4] _ المصدر نفسه، ج15، ص364.

[5] _ معارج التفكر، مج2، ص149.

ضوابط النظر فيما ورد من أسباب النزول وهي مسألة "مراعاة السياق"، وهذه المسألة جديرة بالذّكر في هذا المقام وقد أثبتها جمع من العلماء أمثال "ابن دقيق العيد" الذي ساق مفسرنا كلامه للتدليل على ما ذهب إليه، بقوله: "وينبغي أن يُتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم، وبين مجرد ورود العام على سبب، فإن بين المقامين فرقا واضحا، ومن أجراهما مُجرى واحد لم يصب، فإن مجرد ورود العام على سبب لا يقتضي التخصيص به، كنزول آية السرقة في قصة رداء صفوان. أما السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة إلى بيان المجملات"[1].

وما نبّه عليه "ابن دقيق العيد" جدير جدا بأن يكون محل عناية المتدبر في هذا الموضوع، ويضاف إليه ضرورة جمع النصوص القرآنية من مختلف سور القرآن الكريم، المتعلقة بالأفكار والمعاني التي اشتملت عليها الآية الموضوعة للتدبر، والتأمل فيها مجتمعة متكاملة، لا مجزأة ومتناثرة؛ يقول المفسر: "فعلى متدبر كلام الله أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النصوص والجمل القرآنية عن سوابقها ولواحقها...والواجب عليه أن ينظر إليها مجتمعة ليفهم دلالات النص وترابط معانيه، وأن لا يقتطع آية أو فقرة من آية، ويفهمها فهما منفصلا، فمن شأن هذا الاقتطاع أن يوهم غير المراد، أو يوقع في الخطأ، أو يُضعف كمال دلالات النص، ومما يحصل به إيهام معنى غير مراد لدى اقتطاع النص أن يكون النص المقتطع يشتمل على تعميم غير مقصود"[2].

وهنا نجد المفسر يُضيف قيدا آخر على ما قاله العلماء في حديثهم عن القاعدة وهو مسألة التكامل بين النصوص، ووجوب النظر إليها مجتمعة دون اقتطاع.

المسألة الثانية: تطبيق المفسر لقاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

اعتمد مفسرنا هذه القاعدة في ثنايا تدبره لكلام الله ﷻ، حيث وقفت على أنه يُذكّر بها كل ما أتيحت له الفرصة، فلا يكاد يمر على موضع جاء فيه سبب نزول إلا وبيّن أن معنى الآية أعم من السبب الذي اختصت به، وهو يؤكّد عليها في العديد من المواضع التي سأذكر البعض منها بما يُظهر مدى استعانة المفسر بها:

– لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾[العلق: 9-10] ذكر ما ورد في سبب النزول ثم عقّب قائلا: "وما ورد من أسباب النزول لا يخرج النص عن كونه ذا دلالة عامة، فالعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب، كما هو مقرر عند علماء أصول الفقه.

إن هذا الصنف الطاغي الجبار، الذي يتدخل في عقائد الناس وعبادتهم، والذي يمنع المصلين من صلاتهم بحسب معتقداتهم فيضطهدهم وينزل بهم عذابا من أجل معتقداهم وعباداتهم، صنف موجود في كل عصر، وبلد ومِصر، وعموم النص يشملهم، والوعيد الذي جاء في السورة يعمهم جميعا، ولا يخص أبا جهل ولا نظراءه من الطغاة الذين كانوا في عصر الرسول ﷺ، ولكن قد يؤجل الله العقاب إلى أجل ما في الحياة الدنيا، أو إلى يوم الدين..."[3].

– وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

---

[1] _ قواعد التدبر، ص205.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص149.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص64.

رَحِيمٌ﴾[النحل:110]، قال: "والظاهر أن هذه الآية (110) من السورة نزلت بمناسبة هذه الهجرة التي هاجرها بعض المسلمين إلى الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فآواهم الله بأرض الحبشة آمنين، مدة هجرتهم.

وهذه الآية تؤخذ على عمومها، ولا تحمل على خصوص السبب، فكل من هاجر في سبيل الله بعد ما فتن في دينه في وطنه من قبل كفرة باغين ظالمين، ثم جاهد وصبر ولم تغير أحداث الهجرة شيئا في قلبه وإيمانه غفر الله له وأحاطه برحمته"[1].

– وأثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ تدبّر المفسر هذه الآية وبيّن المراد بها، ثم ذكر أصنافا من الملهيات وعقب قائلا، "وجاء في بيانات سبب النزول: أن النّضر بن الحارث كان يسافر في تجارة إلى بلاد فارس، فيتلقى أكاذيب الأخبار عن أبطال الفرس في الحروب المملوءة بالخرافات المستملحة، والأكاذيب التي تعجب السامعين، فيقصّها على قريش في أسمارهم، ويقول: إن كان محمد يحدثكم بأحاديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم...وكان يشتري من بلاد فارس كتب أخبار ملوكهم، فيحدث بها قريشا.

أقول: إن العبرة بعموم اللفظ القرآني، لا بخصوص سبب النزول وإن صحّ"[2].

وبتأمل هذه الأمثلة التطبيقية وغيرها[3]، تتضح عناية المفسّر بإعمال المفسر للقاعدة أثناء تدبره للآيات، فلم تكن مجرد قاعدة نظّر لها مقلدا سلفه من العلماء والمفسرين، بل هو أدرك أهميتها في الوصول إلى المعاني الصحيحة، وأنها تقيه من الزلل، وهو أمر دقيق ومهم لابد أن يقف المفسر عنده ويوليه أهمية.

وبإقرار هذه القاعدة تنظيرا وإعمالها في تدبره يُبعد عن المفسر القول بتاريخية القرآن الكريم، ويدفع عنه شبهة اعتماد ترتيب نزول السور أثناء تدبره لإثبات ارتباط القرآن بواقعه، وعدم تجاوزه لحدود البيئة التي نزل فيها أو ما يسمى بتاريخية القرآن الكريم التي أكثر الحديث عنها عدد من المعاصرين[4].

المطلب الرابع: مسلك المفسّر في الاستعانة بأسباب النزول أثناء تدبره للسور.

يلحظ الباحث في تفسير (معارج التفكر) عناية المفسر بأسباب النزول واهتمامه بها، لتحقيق غاية أهم وهي تدبر القرآن الكريم وفق الترتيب النزولي للسور؛ فكثيرا ما يستعين بها ويتخذها أداة يحاول من خلالها الوصول إلى معاني الآيات والسور التي نزلت على أسباب متأسيا بمن سبقه من أئمة التفسير.

وقد تنوعت طريقة المفسر في عرضها، ويأتي هذا المطلب لبيان مسلكه في الاستعانة بها بإيجاز:

1. يفتتح المفسّر التدبر التحليلي للسورة بعرضه لما رُوي في بيان سبب نزولها كاملة أو بعض آياتها إن وُجد، فيستهل بها تفسيره

---

[1] _ معارج التفكر، مج13، ص658.

[2] _ معارج التفكر، مج11، ص691-692.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص99- 100/ مج11، ص753.

[4] _ ينظر: تاريخية القرآن في الفكر الحداثي العربي، عبد الله القرني، ص11 وما بعدها/ علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود، ص175 وما بعدها/ العلمانيون والقرآن الكريم، أحمد الطعان، ص332 وما بعدها/ إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، مرزوق العمري، ص87.

ويعنون لها بقوله "سبب نزول السورة"[1]، وإذا تعلق الأمر بآيات من السورة فقط يقول "ما ورد في سبب النزول"[2]، وهذه الميزة تحسب للمفسر حيث يجد الباحث عن أسباب النزول بغيته بكل يسر وسهولة.

وهذا في الغالب الأعم ولكنّه قد يحيد عن مسلكه هذا فيسوق بعض المرويات في ثنايا تدبره، مستعينا بها في فهم الآيات دون التنبيه على أنها من أسباب النزول.

فعند تفسيره للآية 110 من سورة (الإسراء) قال: "وروى مكحول: أن رجلا من المشركين سمع النبي ﷺ، وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم» فقال: إنه يزعم أنه يدعوا واحدا وهو يدعو اثنين، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: 110]. وكذا روي عن ابن عباس"[3]، فقد ذكر ما ورد في سبب نزول الآية من غير أن يعنون له كعادته.

2. يذكر المفسر الأقوال الواردة في سبب نزول الآية أو السورة معزوة إلى من رواها من المحدثين والمفسرين وأصحاب السير[4].

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام: 52] قال: "روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ...ستة نفر، فقال المشركون للنبي: أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما.

فوقع في نفس رسول الله...ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾[الأنعام: 52]"[5].

والمفسر فاته بعض الروايات إذ ذكر مضمونها دون عزو أو حتى إشارة إلى من رواها من الصحابة أو التابعين ﷺ، ومن ذلك قوله: "جاء في أسباب نزول سورة (لقمان) روايات، منها ما يلي:

(1) أن اليهود قالوا للرسول أو أغروا بعض القرشيين أن يقولوا له، لما سمعوا أنه ﷺ قال بشأنهم ما جاء بيانه في سورة (الإسراء/ 17 مصحف/ 50 نزول): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: كيف وأنت تتلو فيما جاءك أنّا قد أُوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء.

فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، ثم أنزل الله الآية (27) من سورة (لقمان)...

إلى غير ذلك من روايات، والله أعلم، على أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[6].

---

[1] _ وهو صنيعه في سورة: (المسد)، (الكافرون)، (الإخلاص)، (عبس)، (القمر) وغيرها. ينظر: معارج التفكر، مج1، ص701/ مج2، ص74- ص208 / مج3، ص317.

[2] _ ينظر: المصدر نفسه، مج3، ص494/ مج6، ص219.

[3] _ معارج التفكر، مج9، ص755. ينظر: مج11، ص248-249.

[4] _ ينظر: المصدر نفسه، مج1، ص96/ مج2، ص74/ مج3، ص494/ مج6، ص219/ مج11، ص248- 249.

[5] _ المصدر نفسه، مج11، ص247- 248.

[6] _ المصدر نفسه، مج11، ص753-754. ينظر: مج15، ص228.

3. عرض المفسر عدّة روايات في أسباب النزول من غير مناقشة أو تعليق، إذ لا يحرر القول في أسانيدها ومتونها غالبا[1]:

وهذه المسألة قد تجعل البعض يتعجل في الحكم على الرجل، ويصنّفه ضمن من أسرف في نقل الأقوال وجمعها دون تمحيص وغربلة كأنه حاطب ليل.

أقول: صنيع مفسرنا هنا لا يعني أنه مجرد ناقل، بل المدقق فيما نقله من روايات في أسباب النزول يجد أنه يستعرض أهم هذه الروايات في بيان السبب[2]، وأنه ينتقي ما يذكره فقد ابتعد على تلك المرويات التي فيها اختلاف في الأصل، وإن كان الخلاف في بعض التفاصيل ذكره ونبّه إليه[3].

ومن ذلك ما افتتح به ما روي في سبب نزول سورة (عبس) حيث قال: "جاءت قصة سبب نزول هذه السورة في عدة روايات متفقة في أصل محتواها، ومختلفة في بعض تفصيلاتها"[4]، ليلخص بعدها مضمون القصة ثم استعرض أهم الروايات.

4 . حرص المفسر على اعتماد ما صح من أسباب النزول، وهذه السّمة زادت من قيمة تفسيره، فإذا ذكرت الرواية في الصحيحين صدّر بها كلامه عن سبب النزول وقدّمها على غيرها[5]، وفي مقابل ذلك أكّد على ما ذهب إليه في قواعده حول ضرورة الابتعاد عن الروايات الضعيفة في تفسير كتاب الله، يقول في ثنايا تدبره للآية (14) من سورة (الجاثية)، "رُويت أخبار في أسباب نزول الآية (14) وهي أخبار ضعيفة الأسانيد، لم أر من الحكمة ذكرها، لأنّ في الآية ما يدل على وجود حدث أو أكثر، واندفاعات انتقام في صدور بعض المؤمنين، في هذه المرحلة التي نزلت فيها السورة..."[6].

5. يشير المفسر إلى روايات في أسباب النزول دون أن يذكر نصوصها.

فعند تفسيره مثلا للآية 71 من سورة (الصافات) يقول: "تدل الآية (71) على أن المشركين قد توجه دعاة منهم لدعوة طائفة من المسلمين لعبادة آلهتهم...فكان من الحكمة تعليم المسلمين ولا سيما الدعاة إلى الله منهم حوارا جدليا عقليا قائما على دليل برهاني تجريبي. وقد جاء في روايات أسباب النزول ما يؤيد هذا الفهم"[7].

6. توضيح المفسر معنى الآية اعتمادا على سبب النزول، حيث يورد قصة السبب ويدلل عليها بما جاء من آثار في كتب الحديث ثم يبني عليه فهم الآيات مؤكدا دائما على أن العبرة بعموم اللفظ[8]، بل نجده يقف أحيانا على قصة سبب النزول ليستخرج ما فيها من عبر وعظات، ومن ذلك ما جاء في سورة (عبس)، حيث اغتنم الحادثة التي كانت سببا في نزول السورة ليبين ما فيها من

---

(1) _ المصدر نفسه، مج1، ص64 –ص96/ مج2، ص74/ مج11، ص249. وفي مواضع قليلة نقل بعض تعليقات الأئمة النقاد، ينظر: معارج التفكر، مج2، ص74/ مج3، ص449.

(2) _ إذ نجده يعنون في أحد المواضع قائلا: "استعراض أهم الروايات". ينظر: معارج التفكر، مج2، ص209.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص64/ مج6، ص219/ مج11، ص249.

(4) _ المصدر نفسه، مج2، ص208.

(5) _ ينظر: المصدر نفسه، مج1، ص380- ص555- ص649/ مج7، ص572–ص617/ مج8، ص719/ مج9، ص428/ مج11، ص248.

(6) _ المصدر نفسه، مج13، ص100. ينظر: مج11، ص198.

(7) _ المصدر نفسه، مج11، ص289. ينظر: مج11، ص330.

(8) _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص149.

تعليم وتوجيه وتصحيح تصورات موجّهة إلى النبي ﷺ وإلى كل داع إلى أمته من بعده ليدلهم على المنهج الأسد والأرشد، وقد عنون لذلك قائلا: "نظرة تدبرية حول حادثة سبب النزول وعتاب الرسول بشأنها"[1].

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في رحاب أسباب النزول عند "عبد الرحمن حبنكة الميداني"، يمكن تسجيل جملة من النتائج أهمها:

– أن أسباب النزول أحد أهم مباحث علوم القرآن التي عني بها العلماء سلفا وخلفا، وإن كان إطلاق السلف لعبارات النزول كان واسعا، يدخل فيه سبب النزول بالمعنى الخاص المتعارف عليه، كما يشمل ما كان من باب التفسير وبيان معاني الآيات.

– أن النظر فيما ورد من أسباب النزول أحد أهم قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ.

– لخّص المفسر أهم ما ينبغي بيانه حول الاستعانة بما ورد في أسباب النزول وأفردها بقاعدة مستقلة أحسن صياغتها وعرضها، منبّها فيها إلى مسائل دقيقة ترتبط بأهمية سبب النزول، وضرورة التثبت منه، وشروط اعتماده، وإن كان لم يعززها بأمثلة تزيدها وضوحا وبيانا.

– كان للمفسر آراء سديدة في حديثه عن أسباب النزول، حيث حذّر من الآثار السلبية لسوء توظيف القاعدة التي نص عليها، وعاب على من سبقه من المفسرين إهمال ما تضمنته.

– أولى مفسرنا أسباب النزول عناية فائقة، فقد اهتم بها في (قواعد التدبر الأمثل) تنظيرا، ووظفها في ثنايا تدبره للسور وفق ترتيبها النزولي في (معارج التفكر ودقائق التدبر).

– إن تنظير المفسر لقاعدة العبرة بعموم اللفظ واعتمادها في تدبره، يدفع عنه شبهة القول بتاريخية القرآن الكريم، باعتبار أنه تدبر سور القرآن الكريم وفق الترتيب الزمني لنزولها.

– تتضح عناية المفسّر بأسباب النزول أثناء تدبره للسور والآيات، فلم تكن مجرد قاعدة نظّر لها مقلدا سلفه من العلماء والمفسرين، بل هو أدرك أهميتها في الوصول إلى المعاني الصحيحة، والسلامة من الزلل.

– تنوعت طريقة المفسر في الاستعانة بأسباب النزول وقد كانت له جهود محمودة تحسب له وتعد من مزايا تفسيره، وإن كان فاته ما يؤخذ عليه.

وفي ختام البحث أردت التنبيه إلى عدد من التوصيات، أهمها:

– يعد تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) من التفاسير التي حوت الكثير من العلوم والمعارف، لذا أوصي طلبة العلم والباحثين بالإقبال عليه وتسجيل بحوث حوله، فهو لم يحظ بدراسات كافية توفيه حقه بحثا وتدقيقا ونقدا وتمحيصا لما تضمنه.

– أوصي بإقامة أيام دراسية أو ملتقيات علمية للتعريف بكتاب (قواعد التدبر) وتفسير (معارج التفكر)، الذي رتّبه صاحبه وفق الترتيب النزولي للسور وخالف به ترتيب المصحف المعهود عن السلف، ليظهر أثره في حركة التفسير الحديثة والمعاصرة.

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص212 وما بعدها.

المصادر والمراجع:

1. إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس، ط1، 1997م، دار الفرقان، عمان: الأردن.
2. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، 1394ه/ 1974م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
3. أسباب النزول أسانيدها وأثرها في تفسير القرآن الكريم، بن جمعة سهل، رسالة دكتوراه، إ. محمد عبد المنعم العتيبي، 1402ه/ 1403ه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
4. أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص –دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه–، عماد الدين محمد الرشيد، 1420ه/ 1999م، دار الشهاب.
5. أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي، ت: عصام عبد المحسن الحميدان، ط2، 1426ه/ 1992م، دار الإصلاح، الدمام: المملكة العربية السعودية.
6. إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، مرزوق العمري، ط1، 1433ه/ 2012م، دار الأمان، الرباط: المغرب.
7. البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، ت: محمد محمد تامر، د.ط، 1421ه/ 2000م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.
8. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1376ه/ 1957م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: مصر.
9. تاريخية القرآن في الفكر الحداثي العربي، عبد الله بن محمد القرني، ط1، 1439ه/ 2018م، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية.
10. التحرير والتنوير "تحرير العقل السديد وتنوير العقل المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393ه)، د.ط، 1984ه، الدار التونسية للنشر، تونس.
11. التعريف بكتاب (معارج التفكر ودقائق التدبر)، مجد مكي، ط1، 1427ه/ 2006م، دار القلم، دمشق: سوريا.
12. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت: عادل أحمد وعلي محمد معوض، ط1، 1422ه/ 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.
13. التفسير بأسباب النزول، مفتاح علي محسن، العدد: 215، السنة: 12، مجلة الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا.
14. تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين –دراسة وتطبيق–، عبد العزيز الضامر، ط1، 1428ه/ 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
15. التيسير في قواعد علم التفسير، ت: ناصر بن محمد المطرودي، ط1، 1410ه/ 1990م، دار القلم، دمشق: سوريا.
16. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد شاكر، ط1، 1420ه/ 2000م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.
17. الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422ه، دار طوق النجاة، بيروت: لبنان.
18. دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد بن سليمان الرومي، ط14، 1426ه/ 2005م، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية.
19. دراسة تطبيقية في ضوء أطر لابد منها في تحقيق أسباب النزول، أحمد فريد وعبد الرحيم فارس، العدد:1، سنة 2011م، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، الأردن.
20. الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، ط4، 1408ه/ 1987م، مكتبة ابن تيمية، القاهرة: مصر.

21. عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر، عائدة راغب الجراح، ط1، 1422 ه/2001م، دار القلم، دمشق: سوريا.
22. العلمانيون والقرآن الكريم -تاريخية النص-، أحمد إدريس الطعان، ط1، 1428ه/ 2007م، دار ابن حزم، الرياض: المملكة العربية السعودية.
23. علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ط1، 1414ه/ 1993م، مطبعة المصباح، دمشق: سوريا.
24. علوم القرآن في المنظور الحداثي -دراسة تحليلية نقدية لآراء الحداثيين في القرآن الكريم-، أحمد بوعود، ط1، 1436ه/ 2015م، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة: مصر.
25. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط1، 1400ه/ 1980م، دار القلم، دمشق: سوريا.
26. قواعد التفسير، خالد السبت، ط1، 1421ه، دار ابن عفان، القاهرة: مصر.
27. القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط1، 1420ه/ 1999م، مكتبة الرشد، الرياض: المملكة العربية السعودية.
28. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط3، 1421ه/ 2000م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.
29. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس بن تيمية الحراني، ت: أنور الباز وعامر الجزار، ط3، 1426ه/ 2005م، دار الوفاء، مصر.
30. المحرر في أسباب النزول من خلال الكتب التسعة -دراسة الأسباب رواية ودراية-، خالد بن سليمان المزيني، ط1، 1427ه، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
31. المسند الصحيح المختصر بقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، د.س، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.
32. معرفة أسباب النزول وأثرها في اختلاف المفسرين والفقهاء، عبد الله طاهر محمود، ماجستير في أصول الدين، إ: محمد الخالدي ومحمد السيد، 1424ه/ 2003م، جامعة النجاح الوطنية، نابلس: فلسطين.
33. مقدمة في أصول التفسير، تقي الدبن أحمد ابن تيمية، د.ط، 1490ه/ 1980م، دار مكتبة الحياة، بيروت: لبنان.
34. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ط3، د.س، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.
35. الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، ت: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، ط1، 1417ه/ 1997م، دار ابن عفان، القاهرة: مصر.
36. الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني -قصة عالم مجاهد حكيم شجاع-، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط1، 1423ه/ 2002م، دار البشير، جدة: المملكة العربية السعودية.